

التأثيرات المسيحية اليهودية في الديانة الإسلامية حسب التصور الاستشراقي "منتغمري وات" أنموذجا

د. عبد السلام الككلي

يشير جواد علي في "تاريخ العرب في الإسلام" إلى أن "كيتاني" وهو من كبار المستشرقين الأوائل الذين كتبوا عن حياة الرسول كان يعتمد منهجاً معكوساً في البحث يذكرنا بكثير من المختصين الجدد في حقل التاريخ الإسلامي والذين يعملون وفق منهج خاطئ من أساسه، إذ أنهم يبنون فكرة مسبقة ثم يجيئون إلى وقائع التاريخ لكي يستلوا منها ما يؤيد فكرتهم ويستبعدوا ما دون ذلك. فلقد كان "كيتاني" إذا رأى رأياً أو فكرة وضع رأيه أو فكرته في السيرة قبل الشروع في تدوينها، فإذا شرع بها استعان بكلّ خبر من الأخبار ظفر به ضعيفها وقويها وتمسك بها كلها ولا سيّما ما يلائم رأيه (1).

(1) جواد علي، تاريخ العرب في الإسلام، ج 1، ص 95 وانظر أيضاً عماد الدين خليل "المستشرقون والسيرة النبوية" في "مناهج المستشرقين" نشر المنظمة العربية للثقافة، تونس، ص 133.

مثل هذه العيوب التي تكاد تلخص مآخذ المسلمين على البحاثة المستشرقين قد أفلح في تجنبها على نحو باهر المستشرق الاسكتلندي "منتغمري وات" الذي يعتبر من أشهر المستشرقين الغربيين في النصف الثاني من القرن العشرين فيما يتعلق بالسيرة. فلقد تصدى "وات" للدفاع عن محمد والإسلام دفاعا دونه شأنا دفاع أشد المسلمين تحمسا لدينه ونيته مع مراعاة منه لمنهج البحث العلمي إلى حد كبير (2).

يبدو "وات" حسب شهادة كثير من العلماء المسلمين على مستوى تقنية البحث متفوقا بمعنى الكلمة وهو يمتلك أداة البحث ومستلزماته ويعتمد أسلوبا نقديا مقارنا يثير الإعجاب. وقد تمكن بواسطته من تحقيق عدد من النتائج القيمة على مستوى السيرة. وهو بشكل عام لا يفترض أو يعتنق رؤية محددة سلفا ويأتي إلى التاريخ لكي يعيد تركيبه وفق رؤيته تلك ويعالج وقائعه بما يجعلها تنسجم قسرا مع مقولات المذهب ويفصل الجزئيات التاريخية لكي تكون على قد القالب المصنوع سلفا، وينتقي ويتقبل كل ما يتناغم مع قناعاته هذه وما لا يكون كذلك يعزل ويستبعد.

إن الرجل يعتمد منهجا مغائرا هو أقرب إلى الموضوعية، إنه يسعى لأن يبدأ حركته مع الوقائع التاريخية دون أي افتراض مسبق ثم تحييء استنتاجاته وتنظيراته مستمدة مما تقوله الوقائع نفسها ومما تتمخض عنها مكوناتها الأساسية وعلاقاتها المتشابكة (3). ثم إنه بالإضافة إلى ذلك يحاول أن يوفق بين ضرورات البحث العلمي ودواعي الاحترام لعقائد المسلمين يقول: "أما فيما يتعلق بالمسائل الفقهية التي أثرت بين

(2) حسين أحمد أمين، دليل المسلم الحزين، دار الجنوب للنشر، تونس 1993، ص 39.

(3) عماد الدين خليل، المستشرقون والسيرة النبوية، ص 147.

المسيحية والإسلام، فقد جهدت في اتخاذ موقف محايد منها وهكذا بصدد معرفة ما إذا كان القرآن علم الله أو ليس كلامه، امتنعت عن استعمال تعبير مثل "قال تعالى" أو "قال محمد" ... بل أقول بكل بساطة يقول القرآن ... فقد ألزمت نفسي رغم إخلاصي لمعطيات العلم التاريخ المكرس في الغرب، أن لا أقول أي شيء يمكن أن يتعارض مع معتقدات الإسلام الأساسية ... وإذا حدث أن كانت بعض آراء العلماء الغربيين غير مقبولة عند المسلمين فذلك لأن العلماء الغربيين لم يكونوا دائما مخلصين لمبادئهم العلمية وأن آراءهم يجب إعادة النظر فيها من وجهة النظر التاريخية الدقيقة" (4).

ويربط "وات" بين هذه المنهجية وبين العلاقات بين المسيحيين والمسلمين في أواخر القرن العشرين، فالعالم حسب قوله "يخطو سريعا صوب الوحدة والتماثل وهو في سبيله إلى أن يصبح عالما واحدا يلعب الإسلام في شؤونه دورا هاما وهو ما يجعل من الضروري الملح محاولة الوصول إلى نظرة موضوعية في الكتابة عن شخصية محمد، إن بعض نقاد كتبي يتهمونني بأنني لا أفصح بوضوح عن آرائني وأنا أجيبهم بأن الكاتب يتصدى لصعوبات جمّة حين يكتب لقرّاء شديديّ التنوّع في مذاهبهم لا بدّ سيفهمون الأفكار الأساسية الواردة على أوجه مختلفة". (5).

لا نشكّ أن هذا الاختيار ينمّ عن شعور متزايد بضرورة تمثين العلاقات بين الشرق والغرب وضرورة خدمة البحث العلمي للحوار بين

(4) وات مونتجمري: "محمد في مكّة" تعريب شعبان بركات، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ص ص 5 - 6.

(5) ذكره حسين أحمد أمين، دليل المسلم الحزين، ص ص 40 - 41.

الحضارات إلّا أننا مع ذلك وحين نتوقف عند تلك المسائل التي تحسم بدقّة الصّلات بين الحضارات مثل مسألة الصّلة بين الإسلام واليهوديّة والمسيحيّة، فإننا نقع على مآزق أدّى إليها تجاذب نزعتين متضاربتين.

(أ) الحرج الذي يشعر به "وات" أمام تلك المسائل التي يسمّيها فقهية والمتصلة عموماً بعقائد المسلمين، هذا الحرج الذي يؤدّي أحياناً إلى عمليات ذهنيّة معقّدة تضع معها معالم الحقيقة تحت ركّامات الافتراضات التي إمّا أنّها لا تجد إلّا أنصاف إجابات أو تترك هكذا في صيغة فرضيات تتحدّى صاحبها لأنّها ترفض أن تخرج من الوضعية الافتراضيّة.

(ب) الميل إلى فكرة التّاريخ الواحد الذي يؤرّثه الغرب (الحضارة اليهوديّة المسيحيّة) فمواقف الاستشراف كثيراً ما تلتقي في الأساس النظري الواحد وإن كانت تختلف فيما بينها كمواقف، أي أنّ الاستشراف يستجيب بالرّغم منه أحياناً وربّما بشكل لا واعي للأساس النظري للثقافة التي أنتجته أكثر ممّا يستجيب لإرادات المفكرين ورغباتهم واختياراتهم المبيّنة. إنّ كلّ معرفة بالآخر معرفة تقييميّة تستند إلى منظومة قيم معيّنة تمارس تأثيرها على الباحث فتوجّه تعامله مع الموضوع الذي يدرسه وتوجّه اختياره للمفاهيم والفرضيات والوقائع⁽⁶⁾.

إنّ هاتين النزعتين تتحكّمان بشدّة كما سنرى في فهم "وات" للعلاقة بين تعاليم الإسلام و"مصادره" اليهوديّة والمسيحيّة، فكيف ذلك ؟

لا يمثّل هذا المشكل قضية أساسيّة في سيرة محمّد لوات بجزئها "محمّد في مكة" "محمّد في المدينة" ولذلك فإنّه يخصّص لها بعض

(6) يفوت سالم حفريات الاستشراف المركز الثقافي العربي، بيروت، 1959، ص 19.

الصفحات من كتابه "محمد في مكة" ولعلّ عدم تخصيصه لبحث طويل يشرح فيه تفاصيل هذه القضية يخدم غرضنا إلى حدّ ما إذ أننا سنراه يختزل أفكاره اختزالاً كبيراً. ولعلّ عمليّة الاختزال هذه ستسهّل امتصاص هذا الفصل المقتضب للأفكار السائدة في هذا المجال كما سنرى ذلك في التحليل. إنّ معرفة "وات" بالحلول التي توصّل إليها الاستشراق في هذا المجال تجعله شديد الحذر في بناء الأفكار التي يريد أن يبرهن على صحتها، فقد جعلت الدراسات الاستشراقية "من الاقتباس عقيدة" وأرجعت التوحيد الإسلامي برمته إلى مؤثرات أجنبية.

إذن ينطلق "وات" من هذه الحلول فينبني نصّه على مجموعة من الأفكار المترابطة.

(1) انتشار فكرة الربّ أو الإله في العصر الجاهلي، يعني أنّ الفكرة لم تكن غريبة على الجاهليين.

(2) إمكانية ارتباط هذه الفكرة بالتأثيرات المسيحية واليهودية قبل الإسلام.

(3) إمكانية وجود تأثيرات أخرى.

فما هي المنهجية التي توخّاها "وات" في معالجة هذه المسائل؟ وما هي النتائج التي استطاع التوصل إليها ليبين أنّ فكرة الله لم تكن غريبة على العقلية العربية؟ ينطلق "وات" هنا أولاً من بعض المعطيات الفيلولوجية وتقوم هذه الدراسة على استقراء السياقات التي وردت فيها هذه اللفظة وينتهي إلى مجموعة من الملاحظات الأولية.

(أ) إنّ شرح القرآن لبعض الألفاظ سقر، القارعة، الخطمة وعدم شرحه لمعنى لفظ ربكّ أو الإله دليل على أنّ اللفظة كانت مفهومة ولا تحتاج إلى شرح.

ب) بعض التعبيرات تدلّ على أنّ بعض المكّيين كانوا يعتبرون أنفسهم يعبدون الله في مكّة.

إلا أنّ المشكلة التي تطرح على "وات" في هذا المستوى من التحليل هو مدلول هذه الكلمة، هنا يقدّم "وات" افتراضين :

أ) الافتراض الأوّل يعني أنّه كان لكلمة الإلاه بعد مشرك فالله عند الجاهليّين في مكّة وغير مكّة كان يعني إلهامًا متعدّدًا.

ب) كلمة الإلاه كانت تعني الإلاه الذي يعبده اليهود والمسيحيّون.

والحقيقة أنّ كلا الافتراضين يثيران مجموعة من الصّعوبات التي لا يمكن تجاوزها بسهولة.

فلنرّ الفرضيّة الأولى : فإذا كانت كلمة الله أو الإلاه أو الربّ تعني الإلاه الأكبر، فإنّ هذا الافتراض ينسف تماما ما قاله "وات" أوّلا من أنّ الجاهليّين كانوا يعتقدون بالله، فدلالة الله الوثنيّة التعدديّة تنفي وجود قرابة بين فكرهم والفكر القرآني كانتفاء القرابة بين التعدّد والوحدانيّة، فلا أحد يدّعي أنّ القرآن نزل على قوم لا ديانة لهم وإلاّ لما كان لذلك الجدل الذي نجده في القرآن أيّ معنى ولكن لا أحد ينكر أن فكرة الله كانت موجودة بالفعل ولكن في شكل وثنيّ مشرك.

أمّا الفرضيّة الثّانية التي تقول إنّ معرفة الجاهليّين بفكرة الربّ أو الله كانت بتأثير اليهود والمسيحيّين وهي فكرة مغرية بالنسبة إلى المستشرقين عموما فإنّها تثير صعوبة أساسيّة أيضا فإذا كانت فكرة من تأثير مسيحي يهودي فكيف نبرّر الجانب الوثني فيها وهو ما يعترف به "وات" نفسه حين يقول : " فإنّ هذا يؤدّي إلى الاختلاط" (7) ؟

(7) وات مونتجمري محمد في مكّة، ص 57.

هنا يضطرّ "وات" إلى نوع من الحلّ الوسط الذي يمكنه من الإبقاء على افتراضية الإثنين معاً :

- الجاهليّون يعبدون الله .
- التأثير اليهودي المسيحي في الجاهليّين .

إذ أنّ ذلك يجنبه الحسم فيهما بشكل نهائي على الأقلّ في هذا المستوى من التحليل .

"بينما كان بعض المكّيّين يعبدون الله فلم يخطر ببالهم أنّ معتقداتهم القديمة المشتركة لا تتفق مع الاعتقاد بالله ولهذا لم يرفضوها" (8) .

وهو ما يجعلنا نعود إلى نفس الإشكال : هل أنّ مجرد الإيمان بقوة غيبية ذات بعد وثنيّ مشرك تعني نوعاً من القرابة بين الجاهلية والإسلام .

* التأثيرات اليهودية والمسيحية في الجزيرة العربية قبل الإسلام :

لما كان "وات" عاجزاً بالفعل ربّما لنقص في الوثائق وربّما لوجود نوايا سنحاول تبينها من خلال التحليل عن تبين المعنى الدقيق لكلمة الله في العصر الجاهلي، فإنّ أفضل وأسير حلّ هو افتراض التأثير المسيحيّ اليهودي في عقيدة العرب مباشرة قبل الدّعوة المحمّدية. الغريب هنا أنّ ما كان في أوّل الأمر مجرد افتراض "وإذا صحّ أنّ كلمة الله كانت تستعمل للدلالة على الإلاه الذي كان يعبدّه اليهود والمسيحيّون" (9) يتحوّل إلى حقيقة لا شكّ فيها "لا شك أنّ بذور التوحيد هذه عند العرب قد ظهرت بفعل التأثيرات المسيحية اليهودية" (10) ينسى "وات" هنا أو

(8) وات مونتجمري محمد في مكة، ص 60 .

(9) (10) وات مونتجمري: المرجع نفسه ص 57 - 58 .

يتناسى ما صرّح به قبل سطرين من أنّ القول بأنّ كلمة الإلاه كانت تعني الإلاه الذي يعبدّه اليهود والمسيحيّون "يؤدّي إلى الاختلاط".

ولكن "وات" يغضّ الطّرف عن هذا الاختلاط فإذا كان الإلاه الذي يعبدّه الجاهليّون ليس إلاه اليهود والمسيحيّين، فلا أقلّ من أن يتشبّث بأنّ جذور الفكرة كانت بتأثير اليهوديّة والمسيحيّة فما حجج "وات" على ذلك:

- وجود مناسبات عديدة للاتّصال بالمسيحيّة واليهوديّة وذلك لانتشار المسيحيّة على حدود الجزيرة في اليمن والشّام والحبشة وفي فارس والحيرة.

- القوّة العسكريّة والسياسيّة ودرجة عالية من المدنيّة سهّلت هذا التّأثير.

إنّ هاتين الملاحظتين تثيران أيضا بعض الملاحظات :

• إنّ قبائل وسط الجزيرة وخاصة قبيلة قريش ظلت بعيدة نسبيا عن هذا التّأثير، ثمّ إنّ مجرد الانبهار بالقوّة العسكريّة لا يبرّر القول ضرورة بالتّأثير الدينيّ.

• ثمّ إنّنا إذا قبلنا بهذه الفرضيّة وقبلنا بالرّأي القائل بتأثير المسيحيّة في العرب الجاهليّين رغم بعد المسافة بينها وبين قبائل وسط الجزيرة فالأولى القول بالتّأثير اليهوديّ، فلقد كان اليهود أقرب إلى العرب من المسيحيّين نظرا إلى أنّهم كانوا يعيشون وسط العرب وهو ما يعترف به "وات" نفسه حين يقول "وربّما كان لبعض هذه المناسبات (اتّصال اليهود بالعرب) طابع أشدّ وأقوى" (11).

(11) وات منتجمري: المرجع نفسه ص ص 57 - 58.

ولكنّ "وات" يستبعد، رغم ذلك ولسبب نجهله هذا التأثير ويؤكد أكثر على التأثير المسيحي، وهنا نصل مع "وات" إلى مأزق آخر وهو: ما هي طبيعة التأثير الذي مارسه المسيحية على العقيدة الجاهلية ؟

من البديهيّ أنّ هذا التأثير سيكون من قبل السّوريين والفرس والأحباش أي أصحاب النظرية القائلة بوحدة المسيح أو النمساطرة، غير أنّ ذلك لو كان صحيحاً لوجدنا أثره في القرآن ما دام الغرض الخفيّ لـ "وات"، حسب نظرنا، هو التأكيد على أنّ القرآن كان صدى لواقع دينيّ معيّن غير أنّنا لا نعثر على ذلك ما دام القرآن حسب "وات" يعبر عن أفكار مسيحية غريبة كالقول بثالوث "الأب، الابن، مريم".

إذن، فإذا كانت الأفكار المنتشرة في القرآن عن المسيحية غريبة عنها وتدلّ على جهل بها، وإذا كانت هذه الأفكار تدلّ على واقع سابق على القرآن، فما معنى القول بتأثير مسيحية الشّام أو فارس أو الحبشة أو العراق في الفكر الجاهلي ؟ بل حريّ بنا أن نقول إنّ هذا التأثير لم يكن موجوداً وإلاّ لوجدنا له صدى في القرآن من خلال مناقشته للمسيحيّين.

3 - إنّ هناك تأثيرات أخرى من جهات أخرى :

الغريب هنا أنّ "وات" في بحثه عن هذه التأثيرات يسارع إلى اعتبار "ما صدر عن جماعات موحّدة غير اليهود والمسيحيّين" تأثيراً ضعيفاً قبل أن يثبت وجود هذا التأثير أصلاً أليس من المنطقي أن نثبت أولاً وجود هذا التأثير ثم نحدّد بعد ذلك درجة قوّته أو ضعفه؟ ولما كان "وات" لا يملك أن يثبت الشّيء أو عكسه فإنّه يفضّل أن يحلّ المشكلة بالالتجاء إلى أسلوب التعميم فينتهي إلى هذه الفكرة التي لا تقرّر في آخر الأمر أيّ شيء مضبوط وهو أنّ عدداً "كثيراً من

النّاس أحسّوا بالفراغ وأخذوا يبحثون عن شيء يرضي أعماق حاجاتهم" (12).

وسريعاً ما يعود "وات" إلى الفكرتين السّابقتين وهو وجود نوع من التّوحيد الغامض في ديانة الجاهليّين وارتباط ذلك بالتأثير اليهودي المسيحي. هذه الفكرة الّتي يدور حولها دورات متتابعة يتركها ثمّ يعود إليها بدون أن يثبت أو ينفي شيئاً محدداً.

وواضح أنّ "وات" يشعر في آخر بحثه في هذه المسألة بنقص التحليل الّذي قدّمه فيرى أنه ليس ضرورياً البت في مشكلة التأثيرات اليهوديّة المسيحيّة فينتهي إلى أسلوب التّعميم الّذي رأيناه فيقول "يجب قبل كلّ أن ندرك أن هذه الأشياء كانت في "الجوّ" " قبل دعوة محمد" (13).

ماذا يمكن أن نستخلص من كلّ هذا ؟

إنّ "وات" يدرك جيّداً حساسيّة هذا الموضوع ويدرك جيّداً الأفكار الّتي أكّد عليها أسلافه من المستشرقين، فلقد جرّد الكثير منهم الإسلام من أيّة أصالة واعتبروه نسخة رديئة من اليهوديّة والمسيحيّة وهو موقف يبدو حياله "وات" غير واضح تماماً، ففي حين لا يقرّر في كتابه "محمد في مكة" شيئاً جليّاً فإنّه لا يمتنع في كتابه "محمد في المدينة" أن يؤكّد صراحة "أنّ القرآن يخرج الأفكار اليهوديّة والمسيحيّة في صيغة معرّبة" وهو رأي غريب إذا تذكّرنا قول "وات" بأنّ ما يوجد في القرآن لا يعبر عن تأثر بالمسيحيّة أو اليهوديّة في جانبهما الرسميّ بل هناك في

(12) (13) وات مونتغمري : المرجع نفسه، ص ص 59 - 60.

القرآن أفكار مقتبسة من الأناجيل المنحولة وهناك بعض التفاصيل المرتبطة باليهودية جاءت من مصادر ثانوية متنوعة.

لا شك أن "وات" يشعر بحساسية هذا الموضوع بالنسبة إلى القراء المسلمين فيتجنب عن وعي الحسم في هذه المسألة، غير أن هدفه واضح بالقدر الكافي وهو اعتبار التوحيد الإسلامي مجرد استعادة للتوحيد اليهودي المسيحي، وذلك يعني أن قيمة محمد لا تكمن في المستوى الديني بل تكمن في أنه استطاع بهذه العقيدة التي ليست لا جديدة ولا أصيلة في ذاتها مجابهة وضعية سياسية اجتماعية معينة. إذن فدراسة الجوانب العقديّة ليست أمراً أساسياً في سيرة محمد وإنما الأهم بيان مدى نجاح هذا الفكر في مواجهة هذه الأوضاع وواضح أن هذه النظرة تنزع عن هذا الفكر الجانب الروحاني فيه مادام في آخر الأمر ليس إلاّ إيديولوجيا استوجبتها ضرورات الإصلاح السياسي والاجتماعي، وهي الفكرة التي أكد عليها الماركسيون كثيراً، وإن كان "وات" يريد أن يختلف عنهم فيما يخصّ هذه القضية كيف ذلك ؟

إنّ "وات" لا يريد صراحة أن يهتمش الجانب الديني من الرسالة المحمدية، فيؤكد على صدق محمد وينفي أن يكون الإسلام مجرد حتمية تاريخية وهو ما يقوله في كتابه "محمد في المدينة" ولا يمكن مع ذلك لكل هذه القوى [السياسية، الاجتماعية] وما يمكن أن يضاف إليها أن تفسّر بنفسها أثناء امبراطورية كاخلافة الأموية أو التطور الذي جعل من الإسلام دولة عالمية وليس توسّع العرب شيئا محتوماً أو آلياً وكذلك إنشاء الأمة الإسلامية" (14).

(14) محمد في المدينة، ص 510.

إلا أن "وات" في الواقع، رغم نواياه الحسنة، يصل في آخر الأمر إلى نتيجتين لا تناقضان ما قاله أسلافه من الماركسيين وغير الماركسيين.

- اعتبار الإسلام صيغة معرّبة من التوحيد اليهودي المسيحي.

- حصر قيمة الرسالة المحمدية في الإصلاح السياسي الاجتماعي باعتبارها رد فعل ديني (جاء نتيجة لتأثيرات خارجية) على وضع خاص هو وضع الجزيرة العربية إبان هذه الرسالة غير أننا يجب أن نؤكد في آخر هذا التحليل على أن موقف "وات" هنا يبدو لنا في غاية الدلالة لأنه يسمح لنا بتشخيص علتين يصعب معهما تصوّر حوار بين الثقافات يقوم على احترام قواعد العلم والبحث.

- الحرج الذي يشعر به القارئ حين يقرأ سيرة محمد يقول "وات" "إنّ الصّلات المتزايدة بين المسيحيين والمسلمين في ربع القرن الأخير يحتمّ على العلماء المسيحيين ألاّ يسيئوا إلى مشاعر المسلمين وأن يصوغوا آراءهم قدر الإمكان في قالب مقبول منهم فمن قبيل التأدّب مثلاً ألاّ نتحدّث عن القرآن باعتباره نتاج عقل محمد الواعي وهو موقف أراه أيضاً متمشياً مع نتائج البحث السليم" (15) إنّ "وات" كما يقول حسين أحمد أمين يرجع ضرورة الكتابة عن النبي إلى توثق الصّلات في العصر الحديث بين العالم الغربي وعالم الإسلام.

هل نتفق هنا مع حسين أمين حين يرفض هذا الأدب الزائف وحين يرى أنّ لهذا الموقف مغزاه: فإذا كان التعاطف الأوروبي المتزايد مع القضية العربية نتيجة لحاجة أوروبا إلى نفط المنطقة هو لا شك وراء تلك المهرجانات والمعارض الإسلامية التي تشهدها أوروبا اليوم وذلك

(15) أمين أحمد ، دليل المسلم الحزين، ص 41.

الاهتمام لأول مرة بنشر ترجمات لمؤلفات الكتاب العرب المعاصرين على نطاق واسع نسبياً فلن نرى غريباً أن نقرأ في المستقبل القريب بحثاً عن أثر أزمة الطاقة العالمية في كتابة سيرة نبي الإسلام في الدول المستهلكة للنفط (16).

- إن سيرة "وات" رغم براعة صاحبها وسعة إلمامه المدهشة، تظلّ في نظرنا مشدودة في فهمها لطبيعة العلاقة بين الحضارتين العربية الإسلامية واليهودية المسيحية إلى نفس الأفكار التي عرضها إدوارد سعيد في كثير من القوة بل من العنف أحياناً في كتابه "الاستشراق" فقد اعتبر الإسلام في أوروبا وبشكل دائم تقريباً صورة معدولة جديدة مخادعة لتجربة ما سبقه هي في هذه الحالة المسيحية، هكذا يكبح التهديد وتفرض قيم مألوفة نفسها وفي النهاية يخفّف العقل من وطأة الضّغط الواقع عليه بإفساح مكان للأشياء في ذاته وتمثلها بوصفها إمّا أصلية أو تكرارية. وهكذا يصبح الشرق والشرقي... شبه تقمّصات زائفة تكرارية لأصل عظيم (المسيح، أوروبا، الغرب). يفترض أنهم كانوا يقلّدونه ولم يتغيّر مع الزّمن غير مصدر هذه الأفكار الغربية التّرجسية الطّابع أمّا شخصيتها الأساسية، فلم يطرأ عليها من تغيّر (17).

إنّ هاتين العلتين تستوجبان إعادة صياغة الشّروط التي يجب توفّرها في أيّ بحث حول ما يسمّى بالمجتمعات الشرقية. إنّ معرفة المجتمعات والثّقافات الشرقية كآية معرفة أخرى تستوجب أن تكون الملاحظة في حدود مضبوطة وأن يبتعد البحث عن إرادة الهيمنة.

(16) أمين أحمد ، دليل المسلم الحزين، ص 41.

(17) سعيد إدوارد "الاستشراق" مؤسسة الأبحاث العربية ط 2، بيروت 1984، ص 92.

إنّ المغامرة التي يمثلها البحث في العلاقات بين الحضارات والثقافات تستوجب أن يفرض الباحث على نفسه ترك عالمه - لبعض الوقت - من أجل أن يلتحق بعالم غريب عنه ينشد بناء اتصال حقيقي به، ففي العلاقات المتشابكة والمعقدة بين الشّعوب والحضارات المختلفة يطلب من المستشرقين رغم صعوبة هذا المطلب أن يتركوا ولاءهم - إلى حين - إلى هذا المجتمع أو ذاك من أجل أن يتعالوا في المستوى الفردي الشّخصي فوق صراعات الثقافات والحضارات وبالتالي صراع الأديان، إنّ الفشل في هذه الوساطة هو من أكبر مخاطر مهمّة الاستشراق (18).

إنّه من حقنا اليوم أن نطالب وقد تحطّمت الصورة الكلاسيكية للإسلام باعتباره كيانا دينيا وثقافيا مغلقا بأن يتوجه جهد البعثة من المستشرقين وغير المستشرقين لموضعة تاريخ الإسلام ومجتمعاته وتعبيراته الدينية في نطاق تاريخ المجتمعات الإنسانية المتنوعة وفي نطاق التعبيرات الإنسانية المتعددة.

وإنّه لمن الضروري أن تتوجه العناية في تحديد الصّلات التاريخية إلى أوجه التشابه ولكن إلى أوجه الاختلاف خاصّة بواسطة البحث المقارن من أجل فهم تطوّر المجتمعات الإسلامية، ولا بدّ لتحقيق ذلك من رفض فكرة تاريخ واحد شامل بؤرته الغرب ولا بدّ أيضا من نبذ منهجية تاريخ الأفكار التي يهيمن عليها هاجس رصد التعاقب والتّالي والاتّصال وتقصّي الأصول والارتقاء اللّامحدود نحو النّماذج الأصليّة ومتابعة خطوط التّطوّر وتعيين بدايتها في نقطة مركزية مطلقة والنّفور من التّفكير في الاختلاف ومن وصف الفوارق والألوان بتغيير الصّورة الهادئة للهويّة وانفصالها (19).

«Mustashrikun» Encyclopédie de l'Islam (18)

(19) حفريات الاستشراق، ص 26.

إنّ هذه العلة الكبرى التي يشكو منها الاستشراق والتي يسمّيها البعض بالانسانويّة الموحّدة (humanisme moniste) ⁽²⁰⁾ تمنعه من بناء أيّة علاقة سليمة مع الإسلام طالما أنّه ما يزال ينظر إليه باعتباره قطاعا من إنسانية موحّدة وإلى التّاريخ الإسلامي كحلقة من حلقات زمن خطّي يفترض أنّه واحد، ولا يمكن أن يتحقّق ذلك إلّا إذا ترك الباحث جانبا كلّ حكم مسبق وإذا قبل الآخر - العربيّ المسلم في حالتنا - في غيريّة المحترمة بل حاول أن يقترب من هذا الآخر من أجل أن يساهم في استرداده لأصالته وتعزيزه لغيريّة.

(20) KEMP P. Désapprendre l'orientalisme, Arabica, TXXXI, fas 1, (Mars 1984)